مجلة الواحات للبحوث والدراسات
ELWAHAT Journal for Research and Studies
Available online at :https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2
623 –608 :(2023) 1 العدد 16 المجلد ISSN : 1112- 7163 E-ISSN: 2588-1892

مساءلة إشكالية التغريب والصناعات الثقافية في المجتمعات العربية

The questioning of the problem of alienation and cultural industries in Arab societies

نزيهة وهابي
جامعة علي لونيسي البليدة02, كلية العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
n.ouahabi@univ-blida2.dz

تاريخ الاستلام: 2023/02/19 تاريخ القبول: 2023/04/17 تاريخ النشر: 2023/06/07

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى البحث في ثنائية الصناعة الثقافية والتغريب الثقافي، فالصناعات الثقافية كمفهوم يتأرجح بين تيارين فكريين متعارضين، الأول يستمد وجوده من الإيديولوجيا النيوليبرالية التي تعتبر منتجات هذه الصناعة سلع هدفها ربحي، أما الثاني فهو نقدي يعتبر أن صناعة الثقافة هي علامة واضحة على إفلاس الثقافة وسقوطها في السلعنة.

في ذات السياق فإن إنتاج وتوزيع الثقافة لن يسهم في وجود تبادل ثقافي ما سيؤدي إلى هيمنة ثقافة واحدة على الثقافات الأخرى مما يجعل الأفراد تعيش حالة من التغريب الثقافي، أي تنازل الإنسان طواعية عن حقه الطبيعي في امتلاك ثقافة حرة متطورة، وفي نقد وتطوير ثقافته، مما يساهم في تغيير ملامح الهوية الثقافية.

كلمات دالة: الثقافة، الهوية الثقافية، التغريب الثقافي، الصناعة الثقافية، المجتمعات العربية

Abstract:

This Paper Aims At Searching In The Cultural-Industry And Cultural-Alienation Dualism. The Cultural Industries Has Two Intellectual Opposing Streams, The First Derives From The Neoliberal Ideology Which Its Products Are Considered Profitable Commodities.

The Second Is Critical That Considers The Cultural-Industry As A Sign Of The Culture Failure And Its Downfall As A Commodification. In This Context, The Production And Distribution

المؤلف المرسل: نزيهة وهابي: ouahabinaziha@yahoo.fr

Of Culture Won't Contribute In The Existence Of Cultural Exchange, Which Makes Individuals Live In A State Of Cultural-Alienation And Disclaim His Natural Right To Adopt A Developed Free Culture And To Criticize And Develop His Own.

Key words: Culture, Cultural Identity, cultural Alienation, Industrial Culture, Arabic Societies.

مقدمة:

تعد الثقافة في شموليتها المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته، وهي حسب تعريف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم "تشتمل على جميع السمات المميزة للأمة من سمات مادية وروحية وفكرية وفنية ووجدانية، وتشمل جميع المعارف والقيم والالتزامات الأخلاقية المستقرة فيها، وطرائق التفكير والإبداع الجمالي والفني والمعرفي والتقني، وسبل السلوك والتصرف والتعبير، وطراز الحياة، كما وتشمل تطلعات الإنسان للمثل العليا ومحاولاته في إعادة النظر في منجزاته، والبحث الدائم عن مدلولات جديدة لحياته وقيمه ومستقبله وإبداع كل ما يتفوق به على ذاته"

كما لا أحد يمكنه تناسي دور وتأثير العولمة في شتى المجالات، فللثقافة دور مهم في صياغة الهوية والانتماء، وتعتبر ظاهرة الاغتراب من أهم الظواهر السلبية في المجتمع في العالم الحديث المعاصر، وقد تبلورت على مدى سنوات عديدة واتخذت مظاهر تختلف في شدتها بين الماضي وبين ما هي عليه في الزمن الحاضر، ولعل العولمة الثقافية كان لها تأثير كبير في الاغتراب الثقافي للأفراد فالعولمة الثقافية توصف بأنها امبريالية ثقافية تسعى إلى تهجين العالم وتجريده من خصوصياته، وفرض النموذج الثقافي الغربي على جميع دول العالم، فهي لا تحترم الإنسان ولا تحافظ على جذوره وحضارته وموارده وتجاربه وثقافته، ويعاني الإنسان في مجتمعات العالم الثالث من إنكار واسع النطاق لحقه في ثقافة هو يحدد عناصرها وأهدافها باعتبار كل ما تعنيه الثقافة من تحقيق للهوية الإنسانية، وهذا النوع الجديد من القهر أصبح إحدى أدواته التغريب الثقافي ومحاولة سلخ الفرد من أمته أو تجريده من الشعور بالانتماء إليها، حيث يسهل إخضاع هذه الأمة لمختلف صور التبعية وقد أصبح مصطلح الصناعات الثقافية يحتل حيزا مهما في كل من الميدان الاقتصادي والثقافي ومختلف الدراسات الأكاديمية، وقد صاغ هذا المصطلح كل من ماكس هوركهايمر (M.Horkhrimer) وتيودور أدورنو (T. Adorno)، وقد تمّت صياغة المفهوم في إطار إحدى أقوى وأهم المدارس الفلسفية في القرن العشرين وهي مدرسة فرانكفورت (الألمانية) وفي الولايات المتحدة الأميركية على وجه التحديد وتحت تأثير السينما والإذاعة.

أصبحت الثقافة العربية محل تهديد في ظل العولمة وسيادة النمط الغربي بسبب الغزو الثقافي الناتج عن انتشار النموذج الغربي بكل ما يحمله من سلبيات وايجابيات وذلك من منطلق صناعة الثقافة، هذه التناقضات هي التي جعلت المجتمعات العربية تقع في حرج من الاندماج التام في إطارها باعتبارها مساسا بخصوصية الهوية الذاتية للمجتمع الذي يتكون من سياقات مختلفة في جوهرها عن السياق الغربي الذي لا يعترف بتميز مقومات الآخر، وهو ما نتج عنه شبه أزمة قيمية في المجتمع نتيجة الصدمة الثقافية الحداثية المعاصرة خاصة بالنسبة لفئة الشباب الذي لم يعد في منأى عن الاغتراب الثقافي.

ومن خلال هذا الطرح تنبثق الإشكالية التالية:

– ما دور صناعة الثقافة في التغريب الثقافي في المجتمعات العربية؟

المحور الأول: الجهاز المفاهيمي:

1– الثقافة:

من الضروري قبل الحديث عن الثقافة وما يتجاذبها من تأصيل أو تغريب أن نقف عند مفهومها ومعناها، وقد عرف إدوارد تايلور E. B. Taylor الثقافة على أنها "كل مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف، وغير ذلك من الإمكانات أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في مجتمع. (حسام الخطيب، 1999، ص 228)

كذلك الثقافة هي استجابة الإنسان لإشباع حاجاته من خلال نماذج معيشية أو نماذج للفكر والعمل ابتدعها الإنسان في سبيل البحث عن إشباع هذه الحاجات المعيشية، وهي نماذج مكتسبة يميل إليها الإنسان إما بالتفكير والعقل كاستجابة للوسط الذي يعيش فيه، أو عن طريق النقل إلى المجتمعات الأخرى. (عماد بدر الدين أبو غازي، 2001، ص 03)

2– التغريب الثقافي:

التغريب الثقافي أو الاغتراب الثقافي هو انفصال الفرد عن مجتمعه وعن الثقافة التي يحملها هذا المجتمع، ورفضه لمعايير هذا المجتمع وثقافته، وهذا ما أكده هاجادا Hajada حيث يرى أن الاغتراب الثقافي هو ابتعاد الفرد عن المشاركة في ثقافة مجتمعه، ويتفق كنيستون مع كل من نتلر وهاجادا حيث يرى أن الاغتراب الثقافي يعني الشعور بالانفصال عن الذات ورفض ثقافة المجتمع وعدم الالتزام بها. (علياء عبد الفتاح رمضان، 1999، ص 87)

3– الصناعة الثقافية:

الصناعة الثقافية تقوم على مادة خام وهي الإنتاج الفكري أو العمل الإبداعي، وعملية تحويلية تتم عبر التصنيع الذي يعتمد على المقومات التقليدية للصناعة: التنظيم ورأس المال وقوة العمل ووسائل الإنتاج المتطورة، وينتج عن كل هذا عمل إبداعي في صورة جديدة، ثم تأتي في النهاية عملية التسويق. (عماد بدر الدين أبو غازي، 2001، ص 04)

تحدد اليونسكو مصطلح الصناعات الثقافية بأنه ينطبق على تلك الصناعات التي تجمع بين ابتكار المضامين وإنتاجها والمتاجرة بها، وهي ذات طبيعة ثقافية غير ملموسة (غير قابلة للتغيير)، مضامينها محمية بقانون حقوق المؤلف، ويمكن أن تأخذ شكل البضاعة أو الخدمات، وعموماً يشمل مفهوم "الصناعات الثقافية" الطباعة والنشر والوسائط المتعددة والوسائل السمعية والبصرية، والمنتجات الفوتوغرافية والسينمائية وكذلك الحرف والتصميم.

وفي بعض البلدان يشمل هذا المفهوم المعمار، الفنون البصرية والأدائية والرياضة، وتصنيع الأدوات الموسيقية أو الإعلان والسياحة الثقافية. (ابراهيم غرايبة، 2020)

– الهوية الثقافية:

المقصود بالهوية الثقافية هي تلك المبادئ الأصلية السامية والذاتية النابعة من الأفراد والشعوب، وتلك ركائز الإنسان التي تمثل كيانه الشخصي الروحي والمادي بتفاعل صورتي هذا الكيان لإثبات هوية أو شخصية الفرد أو المجتمع أو الشعوب، بحيث يحس ويشعر كل فرد بانتمائه الأصلي لمجتمع ما يخصصه ويميزه عن باقي المجتمعات الأخرى، والهوية الثقافية تمثل كل الجوانب الحياتية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية والمستقبلية لأعضاء الجماعة الموحدة التي ينتمي إليها الأفراد بالحس والشعور الانتمائي لها، وأيضا هي ذاتية الإنسان ونقاءه وقيمه وجماليته، بحيث تعتبر الثقافة هي المحرك لأي حضارة أو أمة في توجيهها أو ضبطها، أي هي من التي تحكم حركة الإبداع والإنتاج المعرفي. (أسعد السحمراني، 2002، ص ص82، 83)

المحور الثاني: التغريب الثقافي: مفهومه وآلياته

1– تعريفه:

أ– لغة:

ورد معنى التغريب في معجم المعاني الجامع بأنه تغريب المسافر ونعني المسافر اتجاهه صوب الغرب، ولم يكن تغريبه اختيارا، وبعده ونزوحه عن وطنه، وبمعنى آخر أرادوا تغريبه للتخلص منه، وحمله على الغربة أي إبعاده، ويقال غرب القوم أي ذهب نحو ناحية المغرب.

كما عرف التغريب اتجاه شاع في كثير من شعوب الشرق منذ القرن التاسع عشر يقوم على الأخذ بالنظم والعادات وغيرها من مظاهر المدنية الغربية والعمل بها، وهو تيار فكري ذو أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وفنية. (آلاء محمد رحيم، 2016 ، ص923)

ب– اصطلاحا:

يصطلح التغريب في الاصطلاح الثقافي والفكري المعاصر غالبا على حالات التعلق والانبهار والإعجاب والتقليد والمحاكاة للثقافة الغربية والأخذ بالقيم والنظم وأساليب الحياة الغربية، بحيث يصبح الفرد أو الجماعة غربيا في ميوله وعواطفه وعاداته وأساليب حياته وذوقه العام وتوجهاته في الحياة، كما ينظر إلى الثقافة الغربية وما تشتمل عليه من قيم ونظم ونظريات وأساليب حياة نظرة إعجاب، ويرى في الأخذ بها الطريقة المثلى.(آلاء محمد رحيم، 2016، ص 923)

بالرغم من اختلاف دلالة التغريب وتغيرها باختلاف الأطر الزمانية والثقافية والسياسية والاجتماعية التي يطلق فيها، فإنه غالب الأحيان في هذا الموضوع يتفقون على أنه: "تيار فكري ذو أبعاد سياسية واجتماعية واقتصادية وفنية."(كمال سعد أبو المعاطي أحمد، 2015، ص162)

إن التغريب حركة موجهة لصبغ الثقافة الإسلامية بثقافة غربية، وإخراجها عن طابعها الإسلامي الخالص، وتذويبا في ما يسمى الثقافة العالمية، ومثال على ذلك المؤرخ الانجليزي هاملتون جيب حين دعا إلى حق الغرب في امتلاك التوجيه على التربية والصحافة ومقومات الحياة.

يكاد يتفق معظم من تناول ظاهرة الاغتراب بالدراسة من العلماء والباحثين على أنه يعني الانفصال وأيا كان نوع الانفصال فهو انفصال عن كل أو بعض مكونات الثقافة المعاشة، وبصفة عامة فإن الاستعمالات المبكرة لكلمة الاغتراب Alienation في كتابات هيجل وماركس ودوركايم اشتركت في خاصية واحدة هي الانفصال القائم على التناقض بين المغتربين وما يغتربون

عنه، فالانفصال عند هيجل يحدث بين الإنسان والثقافة، والانفصال عند ماركس يحدث بين الفرد والظروف المحيطة به التي تسبب له الإحباط والاغتراب، والانفصال عند دوركايم يحدث بين الفرد وقيمه الأساسية إلى الثروة دون تقيد بالقيم الأخلاقية فتنهار معنوياته ويصبح نهبا لمشاعر اللامبالاة والاغتراب. (علياء عبد الفتاح رمضان، 1999، ص 87)

التغريب هو جزء أساسي من رسالة الاستعمار والسيطرة الغربية يعمد إلى فرض هذه الفلسفات والمذاهب الغربية، بما فيها من تعارض واضطراب وزيف وذلك حتى يصيب الثقافة العربية بالتمزق والانهيار، وقد جرت عملية التغريب التي عمد فيها النفوذ الغربي عن طريق سيطرته على الثقافة والتعليم والتربية إلى إقصاء القيم الإسلامية العربية وعزلها عن نطاق التعليم، أو عرضها عرضا هامشيا مشوها مع إبعاد كل ما يتصل بها من جوانب القوة أو البطولة أو عظمة الأثر التاريخي الممتد، مما كان له دور في تنشئة أجيال تحمل الأمانة للغرب ويعمل على إعلاء القيم الغربية. (أمين سعيد عبد الغني، 2003، ص06)

لقد صار الاغتراب ظاهرة إنسانية فردية وواقعا اجتماعيا في المجتمع الأروبي خاصة، بل تعدى هذا الواقع إلى بيئات عالمية كثيرة بفعل التأثير الأروبي، وبفعل العوامل النفسية التي مر بها المجتمع الأوروبي ذاته، فلقد صار الشعور بالاغتراب معلما لصفة عدم الرضا بالحالة التي يعيشها الإنسان نظرا للضغوط التي يعانيها، ومما زاد هذا الإحساس عمقا أنه أصبح تيارا فلسفيا يتبناه بعض المفكرين في المجتمعات الأروبية على نحو ما نجده لدى الوجوديين في فرنسا وألمانيا خاصة، على أن هذا التوجه أو الفهم الفلسفي تقرير للواقع الاجتماعي والنفسي، وهو واقع يشعر معه الإنسان بالاغتراب، وهكذا تطور المصطلح في البيئة الأروبية من دلالته الأصلية على الانتقال من المكان أو الانفصال عنه إلى دلالات العزلة والانسلاخ وعدم القدرة على الاندماج في المجتمع، وعدم الشعور بأهمية الحياة، إلى غير ذلك من الدلالات الدينية والفلسفية والاجتماعية. (عبود شلتاغ، 2001، ص 27)

2- آليات التغريب:

يتم الحديث عن آليتين على نطاق واسع في خضم النقاش والجدل الدائر بشأن تجليات التغريب نذكرها فيما يلي:

أ–الغزو الثقافي:

جاء هذا المصطلح إلى واقعنا العربي المعاصر ثقافيا، إعلاميا ولغويا مع ظاهرة الاستعمار الحديث الذي استولت فيه البلدان الأوروبية على معظم الوطن العربي منذ أواخر القرن الثامن عشر (18) حتى أوائل القرن العشرين(20) ، وقد مارست الدول الاستعمارية الغزو الفكري بمجموعة من الوسائل الإعلام، التعليم، المنظمات (الشركات، النوادي والهيئات).(أمين سعيد عبد الغني، 2003، ص 67)

من هنا فالغزو الثقافي ليس بالجديد، أما ما هو حديث فهو تعبيره عن محاولة مجتمع ما لفرض قيمه على مجتمع آخر بالقوة، حيث قد تحدد مضمون هذا المصطلح في ضوء انجازات العلوم الإنسانية، ودخل القاموس السياسي حديثا معبرا بذلك عن الوعي السياسي للشعوب المتحررة وإيمانها بدور الثقافة كدعامة لبناء اجتماعي حيوي أصيل ومتجدد. (باسم علي خريسان، 2001، ص 39)

عرفه جلال أمين بأنه "اعتداء رأسمالي على الهوية الثقافية للأمة المعتدى عليها، من أجل استقلالها اقتصاديا، كما يمكن أن نصنفه بأنه غزو دين لدين أو إحلال ثقافة أمة محل ثقافة أخرى. (أحمد عيساوي، 2004، ص 75)

أما محمد الميلي فمن جهته يرى بأن الاصطدامات الأولى بين الغرب الاستعماري والبلدان التي فقدت استقلالها الواحدة تلو الأخرى في الماضي كانت في جوهرها اصطدامات ثقافية، صحيح أن الشكل الذي اتخذته والنتائج التي ترتبت عن ذلك جعلت الجانب السياسي العسكري فيها أوضح، لكن من البديهي أن الذي يرفع السلاح ضد محتل أجنبي إنما يرفعه في الواقع ضد مفهوم ثقافي يراد أن يفرض عليه فرضا. (محمد الميلي، 2000، ص ص 249، 250)

فمثلا الغزو الفرنسي كان ولا يزال يهدف إلى تكوين مواطن فرنسي ثقافيا وليس إثنيا أو جغرافيا، يدين بالولاء لفرنسا ونجاحها في ذلك تحقق به ما لم يحققه لها نجاحها العسكري، ففي حالة انتصارها الثقافي يصبح الشخص المغزو جنديا مجندا لها، وفي حالة انتصارها العسكري يصبح الشخص المغزو مجندا ضدها لمقاومتها، والفرق بين الحالتين كالفرق بين من يرى أنه غير فرنسي حتى وهو يعيش داخل فرنسا، وغير الفرنسي الذي تعيش فرنسا داخله، وحتى وإن كان يعيش خارجها فهذا الأخير لا يتخلص من غزوه حيثما حل وارتحل، بينما صاحب الغزو العسكري،

يمكنه التخلص من الغزو وليس بالضرورة أن يحتل ثقافيا ففي هذه الحال يصعب عليه الانسلاخ من هذا الغزو الفكري والثقافي. (الطيب بن إبراهيم، 2005، ص 136)

ب–الاختراق الثقافي:

إذا كان مفهوم الغزو الثقافي قد اقترن بمرحلة السيطرة الأوروبية المباشرة على العالم، فإن مفهوم الاختراق الثقافي قد اقترن بالتطور التقني.(باسم علي خريسان، 2001، ص ص 41، 42)

ففي مجال الاتصالات والمعلومات بعيدا عن استخدام القوة العسكرية قد ظهرت بوادر مرحلة جديدة من الاختراق الثقافي الذي يقف وراءه هذه المرة لا مدافع الاستعمار، ولا أجهزة الدعاية المقاومة "للشيوعية"، بل يقف وراءه ذلك التطور الهائل الذي عرفته وسائل الاتصال السمعية البصرية التي أصبحت تغطي جميع أرجاء العالم بواسطة البث عبر الأقمار الصناعية، تخترق جميع البيوت لتمارس الهيمنة الثقافية على بلدان العالم الثالث. (محمد عابد الجابري، 1994، ص ص 181، 182)

الاختراق الثقافي هو: "حركة الهيمنة الثقافية على بلدان العالم الثالث، وانتقال الأفكار والقيم والعادات الغربية بشكل مكثف وغير مسيطر عليه إلى المجتمعات العربية وما يماثلها في دول العالم الثالث، كما يمثل سياسة وإستراتيجية للتدخل في شؤون الغير بقصد التأثير في ثقافتهم وسلوكياتهم ومعتقداتهم، تدخلا كليا أو جزئيا بمختلف الوسائل. (علي محمد حوّات، 2005، ص 87)

أما هربرت شيللر فيعرفه على أنه : "مجموعة صيرورات يدمج من خلالها مجتمع ما في إطار النظام الدولي الجديد، والكيفية التي تجعل فئته الحاكمة تَقبل عن طريق الإبهار، الضغط، القوة أو الرشوة على تشكيل المؤسسات الاجتماعية حسبما يتماشى مع قيم وهياكل المركز المسيطر للنظام، أو يتحول إلى داعية له. (فؤاد بن حالة، تر: أحمد عظيمي، 2005، ص 12)

الاختراق الثقافي كسياسة واستراتيجية تنتهجها بعض الدول هو التدخل في شؤون الغير بقصد التأثير في ثقافتهم وسلوكهم ومعتقداتهم ؛تدخلا كليا أو جزئيا بمختلف الوسائل، أما الاختراق الثقافي من حيث أساليبه وأدواته فهو مجموع الأنشطة الثقافية والإعلامية والفكرية التي توجهها جهة أو عدة جهات نحو مجتمعات وشعوب معينة، بهدف تكوين أنساق من الاتجاهات السلوكية والقيمية أو أنماط وأساليب من التفكير والرؤية والميل لدى تلك المجتمعات والشعوب؛ بما يخدم مصالح وأهداف الجهة أو الجهات التي تمارس عملية الاختراق. (أيمن منصور، 1996، ص ص 14، 15)

أما محمد حوات فقد حدد الأبعاد المشكلة لمفهوم الاختراق الثقافي في العناصر التالية:

– جر ثقافة الشعوب والدول المستقبلة إلى تبعية ثقافة الدول المتقدمة عن طريق البث المباشر، واعتمادها على آلياته اعتمادا كليا في نشر وإنتاج القيم، المعارف، المعاني والأفكار سواء ذلك بسبب تفوق الثقافة (المخترقة) في مقدرتها على مثل هذا الإنتاج، أو بسبب انعدام ثقة المستقبل بثقافته.

– تولد أو سيادة الشعور بالتفوق والاستعلاء لدى الدول الباثة (المخترِقة)، والنقص والدونية لدى الدول المستقبلة (المخترقة).

– تشجيع وجود نمط عالمي موحد للسلوك الاستهلاكي، فتحت شعار "الجديد دائما" يتم استيراد آخر التقليعات الأمريكية والأوروبية، وفي كل يوم يرمى القديم ليحل محله الجديد المربح تجاريا للدول الغازية (المخترِقة).

– وضع العقبات أمامَ الجهود التي تبذلها الدول النامية لتثبيت دعائم استقلالها السياسي والثقافي ولضمان سيادتها.

– تعطيل الإرادة الوطنية للدول التابعة ثقافيا، وفقدانها السيطرة على إعادة تكوين ذاتها أو تجددها.(علي محمد حوّات، 2005، ص ص 87، 88)

لعل من بين وسائل الاختراق التي تمارسها هذه الدول الغازية على العالم وفي مقدمتها الوطن العربي، نجد أن نسبة الأفلام الأمريكية مثلا تزيد عن 70 % من الأفلام المعروضة في الأقطار العربية، أما برامج التسلية التليفزيونية فتزيد عن 75 % منها أمريكية، وفي العالم أجمع توجد 10 وكالات دولية للدعاية، 09 منها أمريكية، و04 وكالات للأخبار، 02 منها أمريكيتان، أما البث عبر الأقمار الصناعية فالسبق والهيمنة هو للولايات المتحدة طبعا. (محمد عابد الجابري، 1994، ص 192)

المحور الثالث: الصناعات الثقافية

1– تعريفها:

يختلف مفهوم الصناعات الثقافية وفلسفتها وأهدافها من مجتمع لآخر وفقا لظروفه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فيمكن تعريف الصناعات الثقافية بأنها جميع الوسائل المادية التي تستخدم في إنتاج الثقافة والفنون ونشرها من صناعات الكترونية وغير الكترونية، وتشمل الصناعات الثقافية قطاعات واسعة من المواد الواسعة والوسائل المادية التي تستخدم في نقل معطيات واقع الإنسان وإبداعاته الفكرية والوجدانية والمعرفية ، وتعتمد التنمية المعرفية على

الصناعات الثقافية بشكل كبير بوصفها الوسائل والأدوات الأساسية في إنتاج المعرفة ونشرها، فالصناعات الثقافية عنصر هام في البناء الحضاري والتنموي الشامل لثقافة الأمة واستقلالها السياسي والاقتصادي والفكري ووسيلة للتفاعل الحضاري بين الأمم والثقافات المتنوعة. (الزيد، عبد الكريم بن عبد الرحمن سعد، 2004، ص 131)

2– نشأة الصناعات الثقافية:

تعود نشأة الصناعات الثقافية لدراسات أجريت في وقت مبكر في إطار مدرسة فرانكفورت في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين وهي دراسات كانت تنتقد تول الفن إلى سلع، باعتبار أن هذه النزعة تضفى مشروعية إيديولوجية على المجتمعات الرأسمالية وعلى نشوء صناعه ثقافية شعبية، وقد ظهر مفهوم الصناعة الثقافية وتمت صياغته من قبل مدرسة فرانكفورت، حيث ابتدعه المنظر النقدي ثيودور أدورنو Adorno Theodor وماكس هوركهايمر Max Horkheimer، تم تناوله في الفصل الأخير من كتاب "جدلية التنوير" "Dialectic of Enlightenment " صناعة الثقافة: التنوير والخداع الشامل" (محمد شريف عوض، 2013، ص 101)، وقد تم عدّه أهم فصول الكتاب من ناحية تشخيص أزمة العقلانية الأداتية، شدّد تيودور أدورنو على مخاطر المجتمع الصناعي على الثقافة، وبخاصة من ناحية الثقافة المتجانسة التي هي قرينة التسليع الذي يتحدّد من خلال أسعار المنتجات التي لا تكون بالضرورة دقيقة تبعا لتحليل ماركس. فالسلع التي تنتجها صناعة الثقافة لا تقاس بالقيمة الاستعمالية، وإنما تقاس بقيمة مجردة يحدّدها السوق. وذلك كله في إطار من الاستهلاك الذي يفترض أنماطا جاهزة من الجماهير في سياقات هيمنة المال والسلع، وبخاصة في ظل "قدرة المجتمع الصناعي على تحويل الثقافة الحقيقية إلى ثقافة جماهيرية استهلاكية". فالصناعة الثقافية، من منظور مدرسة فرانكفورت، تعكس هيمنة القيمة التبادلية ووثنية السلعة وسطوة المال والرأسمالية في احتكار السلطة. وكان كارل ماركس يكرر أن السلعة أقوى من المدفع.(يحي بن الوليد، 2020)

لقد كان الحديث في البداية عن مفهوم ثقافة الجماهير حيث يعنى بها المنتوجات التي تدرس من أجل الاستهلاك الجماهيري والتي تحدد من قبلهم، وإذا كانت الثقافة ليست موردا إنتاجيا بالمعنى الرأسمالي الليبرالي للكلمة، فإنها تعتبر حسب Milan Kundera ذاكرة الشعب، والوعي الجمعي للاستمرارية التاريخية، ونمط التفكير والعيش، إنها أيضا من وجهة نظر اقتصادية الحاجة للإنتاج والاستهلاك، ويميز دافيد ثروسبي الأنشطة الثقافية من هذه الوجهة انطلاقا من

ثلاثة خصائص، أولا الأنشطة التي تدمج بعض أشكال الإبداع، ثانيا الأنشطة التي تنتج الإشارات والمعنى (الشيء الذي يسمح باستبعاد الإبداع العلمي)، ثالثا الأنشطة التي يخضع منتوجها إلى الملكية الفكرية التي تمزج بين الإبداع والإنتاج وتسويق السلع والخدمات والتقطيع، وتشمل الطباعة والموسيقى والسينما والوسائل السمعية البصرية والوسائط متعددة الإنتاج، ويمكن أن تشمل بعض الفنون التشكيلية والفنون المسرحية. (عبد اللطيف كداي، 2018، ص 49)

يرجع ظهور مفهوم الصناعات الثقافية ردا على المخاطر الناجمة عن طرح منتجات الصناعة الكثيرة والمتعددة على وضع الإبداع الثقافي، واستخدما في بحثهما مصطلح الثقافة الجماعية ثم استبدلاه فيما بعد بمفهوم الصناعة الثقافية ليعبر عن الشكل المعاصر للفن الشعبي. (رفاعي عبير محمد عباس محمد، 2018، ص ص 235، 236)

تطور مفهوم الصناعات الثقافية منذ القرن الثامن عشر، وتضمن فكرة المستهلك والمواطن، وظهرت فكرة هذه الصناعات نتيجة للتغيرات التي شهدتها التكنولوجيا والاقتصاد على المستوى العالمي بدءا من التسعينات من القرن الماضي باعتبارها إحدى الآليات لزيادة الإنتاج المحلي. (رفاعي عبير محمد عباس محمد، 2018، ص 241)

المحور الرابع: ثنائية الصناعة الثقافية والتغريب الثقافي

السؤال الأكثر إلحاحا اليوم هل استطاعت ثقافتنا العربية في هذا الوسط الذي تتنامى فيه ثقافة الطحالب الوافدة أن تحافظ على انتمائها لمحيطها الجغرافي ولمنظومة قيم الأمة، أو أنها خرجت عن الخدمة الوطنية وباتت عرضة لعوامل التغريب الممنهج الذي يستهدف نسق مقومات الانتماء لأمة عمرها من عمر التاريخ.

الواقع أن المتتبع لحالة الثقافة العربية الراهنة يلاحظ أن ثمة تباينات في المعرفة الثقافية سببها تعدد التوجهات الفكرية والمدارس الثقافية التي تنظم الحياة الاجتماعية والتربوية والأخلاقية في أقطار الوطن العربي، والتي جاء انعكاسا لتعدد القوى الاستعمارية التي كرست التجزئة الجغرافية والثقافية، في محاولة لاستئصال المنظومة الثقافية أحد أهم مقومات تكوين الأمة وتماسكها، كونها تدعو إلى التنوع في الرؤى، وإلى تقبل ثقافة الآخر، وهو ما يقطع الطريق على موجات التغريب الثقافي. (سلمان، جابر إبراهيم،2017، ص 06)

تقوم صناعة الثقافة ذات التوجه العولمي بتغيير ملامح المجتمع، حيث تبدأ بإفراغ الهوية الثقافية من كل محتوى، وتحويل المجتمع إلى عالم من المؤسسات والشبكات العالمية ويتحول معه أفراد

المجتمع إلى تابعين أو بالأحرى إلى مستهلكين للسلع والصور والمعلومات التي تفرض عليهم، ومن ثم يصبح الوطن الحقيقي هو الفضاء المعلوماتي الذي تصنعه شبكات الاتصال والعولمة، ولهذا أصبح التخطيط لثقافة المستقبل أو لمستقبل الثقافة من القضايا الأساسية التي تحظى باهتمام كبير في أنحاء العالم كافة، العالم المنخرط بهذه الدرجة أو تلك في مسلسل التطور العلمي والتقني الذي يطبع الحضارة المعاصرة. (محمد شريف عوض، 2013، ص 101)

لما نتساءل عن وظيفة صناعة الثقافة داخل المجتمع، حيث أنها تقوم بتزييف وعي الجماهير من خلال وعودها بأنها ستقوم بتقديم الجديد من أفكار وأعمال جديدة تثير المنفعة وتنمي روح التجديد والابتكار والنقد لدى الجماهير بشكل مستمر، ويعد هذا وعيا وهميا لا يتم تحقيقه في الواقع، فصناعة الثقافة تقوم بإخفاء الوعي الثوري والتفكير النقدي لدى أفكار أفراد المجتمع من خلال الأعمال الفنية والبرامج الترفيهية والسياسية التي تقدم من خلال وسائل الإعلام، وتعمل على تزييف الحقائق وبث معلومات وحقائق لا ترتبط بالواقع الاجتماعي الذي يعيشونه داخل مجتمعهم، وفي هذا الشأن يؤكد كل من هوركايمر وأدورنو على دور صناعة الثقافة في تشكيل اتجاهات وسلوكيات الأفراد، حيث فقدت الشخصية الإنسانية حريتها في التعبير عن ذاتها وآرائها بحرية وموضوعية. (هاني خميس، 2005 ، ص 43)

استحوذ البعد الثقافي لظاهرة العولمة على جانب كبير من اهتمام الدراسات التي عنيت بتحليل الظاهرة بكيفية لا نجدها في الأبعاد الأخرى حتى الاقتصادي منها، ويمكن تبرير ذلك بالنظر إلى الثقافة كما أوضحها السيد ياسين بأنها ستكون واحدة من أبرز الآليات الفاعلة في المجتمع الكوني، فالثقافة ستصبح من أهم مصادر القوة في عصر المعلومات، حيث إن الثقافة بفضل التطور الرأسمالي القائم على التطور المستمر خارج الحدود أصبحت سلعة ينطبق عليها من الأحكام والإجراءات ما ينطبق على سواها من السلع المادية، وتهدف العولمة في بعدها الثقافي إلى الاختراق الثقافي، حيث السيطرة على الإدراك وسلب الوعي والهيمنة الثقافية، وهنا يؤكد "مايك فذرستون " أن التمدد والتداخل الثقافي العالمي يؤدي إلى نشأة كيان عالمي يعرف بأنه "نطاق من التفاعل والتبادل الثقافي"، فهو عملية تقوم فيها سلسلة من التدفقات الثقافية لإفراز تجانس ثقافي وفوضى ثقافية في آن واحد، حيث ردود أفعال داعمة للقوميات وإفراز ثقافات عابرة للقوميات، وفي هذا تتشكل ثقافة تتجه إلى ما وراء الحدود القومية، والتي أطلق عليها فذرستون "ثقافة ثالثة" (آمال عبد الحميد،2001، ص ص، 141، 142)

في هذا السياق ظهرت الدعوة إلى ما عرف في نهاية تسعينيات القرن الماضي بـ Value Free International Citizen المواطن العالمي المتحرر من أية قيم خاصة أي المواطن أو معالم ثقافية وحضارية تميزه عن غيره، والمقصود من هذا أن يكون مهيئا لتقبل واعتناق قيم العولمة الثقافية المؤمركة، كما ظهرت فكرة المواطن العالمي الذي يتبنى ظهرت فكرة ثقافة واحدة وقيم حضارية واحدة وشخصية عالمية واحدة، لها سمات محددة، غالب ما تكون روافدها غربية الطابع. (بشير عبد الفتاح، 2008، ص 63)

المحور الخامس:سعي الغرب للهيمنة على الوطن العربي

إن التغريب الثقافي سلاح استخدمه الغرب في كثير من الأحيان كوسيلة للسيطرة والاستعمار وخدمة المصالح الغربية، وإن الهيمنة الثقافية تعد اليوم على رأس قائمة الأولويات في الغرب، ومن أهم الدول التي تستهدفها تلك الهيمنة بلدان الوطن العربي، فالدول الاستعمارية غيرت بشكل عام أساليبها وتخلت عن الاستعمار المباشر إلى شكل آخر من الاستعمار الجديد غير المباشر، يشد المستعمرات السابقة إلى مراكز هيمنته في إطار مفروض ومراقب من التبعية الاقتصادية والسياسية والفكرية، فعلاقة الفكر العربي بالفكر الأروبي في القرنين التاسع عشر والعشرين قد تمت داخل إطار الاستعمار الجديد والتبعية اللذان يقومان على الغزو المباشر أو شبه المباشر في مختلف الميادين، فالوطن العربي كان ولا يزال يجري بين هامش تدور في فلكه الحياة والثقافة العربيتان، ومركز يحتله الوجود الحضاري والثقافي الغربي وهو لقاء تجاذب وتنافر تتحكم فيه قوة الشد على المركز التي يستجيب لها هامش المحيط بتكيفات تتباين من الانقياد والتماسك وامتصاص زخم المناورة، وهكذا خضعت الأمة في كثير من جوانب حياتها للغرب في ظل نفوذ القوة والهيمنة والتحكم، فكان الطرف العربي هو المتلقي والمنفعل أما الطرف الغربي هو الغازي والقامع.

إن التغريب الثقافي عمل على تهيئة الأجواء والبنى الملائمة لإيجاد قبول عربي عام للنفوذ الغربي مما ساهم في زيادة وتيرة السيطرة الغربية والإذعان العربي. (يزيد عيسى السورطي، 2003، ص ص 62 63)

تشير الإحصاءات أن الأمريكيين على سبيل المثال يبيعون من الأفلام والبرامج التلفزيونية لبقية العالم أكثر من ما يبيعونه من الأسلحة والسيارات، فالهيمنة الثقافية الغربية على أجزاء كبيرة من الوطن العربي صورة من صور الاستعمار غير المباشر الذي يتميز بأقل التكاليف وتبعاته على القوى المهيمنة من جهة وفاعلية نتائجه هي على القوى المهيمنة عليها من جهة أخرى، كما أن

عملية مواجهته تعد أمرا صعبا لأنه لا يأخذ شكل الاستعمار السافر مما يجعل عملية توحيد الشعوب المستهدف وحفزها وحشدها لمقاومتها أمرا صعبا. (يزيد عيسى السورطي، 2003، ص 63)

لقد خلقت صناعة الثقافة شكلا جديدا للانتماء يسمى "الانتماء الرمزي"، حيث إنه إذا كانت العولمة تشكل تجاوزا للحدود القومية، فإنها في الوقت نفسه تشكل مقدمة للقرية الكونية التي توحدها وسائل الاتصال والمعلومات، بحيث يتحول الإنسان الذي يستوعب مفرداتها إلى إنسان جديد يأخذ ملامحه من المسيطر، وبالتالي عصر جديد، ولغته من لغة الغازي الثقافي، ويغدو انتماؤه للقرية الكونية أقوى من الانتماء لأمته أو قوميته، واستنادا إلى ذلك يتحول أفراد المجتمع، لا سيما شريحة الشباب الذين يستوعبون هذه القيم إلى أناس عالميين متحررين من الانتماءات اللغوية والقومية والثقافية والدينية وحتى الجغرافي، وفي إطار الكوننة المسيطرة على العالم أجمع، غدت الشركات المتنافسة الآن على السوق لا تبيع المنتجات بل تبيع وتروج الرموز، بحيث لم تعد المنافسة قائمة على أساس نوعية البضاعة ومتانتها وجمالها وجدتها، بل أصبحت المسألة فيما يتعلق بالحرب التجارية على مستوى الكرة الأرضية مرتبطة بالصورة والانتماء الرمزي، ولا سيما الشباب في العالم فقد أصبح أفراد العالم الثالث يقتنون الأحذية الأمريكية ويرتادون مطاعم ماكدونالد بغض النظر عن السعر، ويتبعون موضة المشاهير ويقومون بنفس قصات الشعر حيث يمنحهم هذا شعورا بالانتماء إلى الغرب، وهم بهذا يعبرون أمام الأقرباء والغرباء عن اندماجهم وهميا ضمن جماعة أو فئة أرقى الأفراد من فئات مجتمعاتهم، وهكذا يعبر اقتناء الأفراد لسلع معينة عن انتماء وهمي لهويات تتفوق على القيمة بحد ذاتها، وهو ما يفسر رمزية إنفاق المبالغ الخيالية على الإعلان الذي يهدف ليس فقطً إلى التنافس على السوق، بل أيضا إلى التلاعب بالرموز وتوظيف الأوهام والخيال والإغراء بالاستهلاك بما يمحو التمييز بين الصورة والواقع. (محمد شريف عوض، 2013، ص 122)

خاتمة:

للمحافظة على البنيان الثقافي للأمة والحيلولة دون هدمه فإن ذلك يستدعي البحث عن مستلزمات المواجهة الكفيلة بإيقاف زحف ثقافة التغريب أو ما يسمى بالغزو الثقافي الذي تستخدمه الدول الغازية لقهر الشعوب ولإذلالها، ولكي تكون مستلزمات المواجهة مجدية وفاعلة في الجغرافية السياسية والثقافية، فإنه يتعين صياغة مشروع ثقافي عربي يرقى إلى مستوى التحديات، ويكون أحد أهم ركائز تطور المجتمع وتنميته معرفيا بالشكل الذي يجعله قادرا على تحقيق نقلة نوعية في المسار الطبيعي لنهوضه الحضاري .

فصياغة مشروع ثقافي يتقبل الآخر على احترام قاعدة الاحترام المتبادل، ويعمق الانتماء إلى الأمة وبالتالي تحصين المنظومة الثقافية التي باستقامتها تستقيم الأمة، وتصبح أكثر حيوية وأكثر قدرة على التجدد والانبعاث.

قائمة المراجع:

أولا: الكتب

– عيساوي أحمد، الثقافة الوطنية وتحديات العولمة، شركة مزوار للطباعة والنشر، الجزائر، 2004

– السحمراني أسعد، ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة، دار النفائس، بيروت، 2002

– عبد الغني أمين سعيد، الثقافة العربية والفضائيات، رؤية إعلامية من منظور منهجية التحليل الثقافي، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2003.

– خريسان باسم علي، العولمة والتحدي الثقافي، دار الفكر العربي، بيروت، 2001.

– عبد الفتاح بشير، الخصوصية الثقافية، الموسوعة الثقافية للشباب 20، نهضة مصر، القاهرة، 2008.

– شلتاغ عبود، الثقافة الإسلامية بين التغريب والتأصيل، دار الهادي، بيروت، 2001.

– حوات علي محمد، قراءة في الخطاب الإعلامي والسياسي المعاصر: مخاطر الغزو الثقافي والإعلامي في الوطن العربي، مكتبة مدبولي، مصر، 2005.

– بن حالة فؤاد، ترجمة عظيمي أحمد، صدمة الاتصال الشمولي: الأنظمة والمجتمعات العربية في مواجهة التحدي، منشورات ANEP، الجزائر، 2005.

– الميلي محمد، حق المعرفة وحق الأمل، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 2000.

– الجابري محمد عابد، المسألة الثقافية، سلسلة الثقافة القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 1994.

ثانيا:المجلات والدوريات

– آلاء محمد رحيم، تغريب المرأة العربية المسلمة في ضوء متغيرات العولمة المرأة العراقية أنموذجا (دراسة ميدانية)، مجلة كلية التربية الأساسية، العراق، المجلد 22، ع 96، العراق، 2016.

– الزيد عبد الكريم، بن عبد الرحمن سعد، الصناعات الثقافية في المملكة العربية السعودية – دراسة تحليلية، مجلة دراسات عربية في المكتبات وعلم المعلومات، المجلد 9، العدد 3، السعودية، 2004.

– الطيب بن إبراهيم، قراءة مختصرة لكتاب: الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، مجلة الدراسات الإسلامية، ، العدد 08، الجزائر، 2005.
– الخطيب حسام، أي أفق للثقافة العربية وأدبها في عصر الاتصال والعولمة؟، العولمة ظاهرة العصر، مجلة عالم الفكر، المجلد 28، العدد 2، الكويت، 1999.
– كداي عبد اللطيف، الصناعة الثقافية بالمغرب والمساهمة بالتنمية: أية استيراتيجيات ممكنة؟، المجلة المغربية للعلوم الاجتماعية والإنسانية ، العددين 3، 4، المغرب، 2018.
– عبير محمد عباس، الصناعات الثقافية وبناء الاقتصاد الإبداعى : رؤية تنموية بديلة، دراسة حالة لصناعة الحرف التقليدية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد 78، العدد 1، 2018
– كمال سعد أبو المعاطي، تغريب اللسان العربي وتأثيره على الانتماء، مجلة الباحة للعلوم الإنسانية، العدد 3، السعودية، 2015.
– محمد شريف عوض، صناعة الثقافة في عصر العولمة وأثرها في تغيير ملامح الهوية الثقافية، مجلة هرمس، مصر، المجلد 2، العدد 1، 2013.
– هاني خميس، صناعة الثقافة وتشكيل الوعي الإنساني، مجلة فصول، القاهرة، العدد 67، 2001.
– السورطي يزيد عيسى، التغريب الثقافي وانعكاساته التربوية والتعليمية في الوطن العربي، المجلة العربية للتربية، تونس، المجلد 1، العدد 1، 2003.

ثالثا: الرسائل الجامعية

– علياء عبد الفتاح رمضان، العلاقة بين تعرض المراهقين لوسائل الاتصال الجماهيرية والاغتراب الثقافي، رسالة ماجستير، معهد الدراسات العليا للطفولة، قسم الإعلام وثقافة الطفل، 1999.

رابعا– الندوات والمؤتمرات:

– آمال عبد الحميد، العولمة والثقافة: الأشكال والآليات، في: الاستهلاكية ومستقبل الثقافة في المجتمع، أعمال الندوة السنوية الثامنة لقسم الاجتماع بكلية الآداب، جامعة القاهرة، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، مصر، 2001
– أيمن منصور، "الاختراق الثقافي عن طريق البث الوافد؛ دراسة مسحية لأدبيات الاختراق"، أعمال ندوة الاختراق الإعلامي للوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربي تونس، 1996
– عماد بدر الدين أبو غازي، نحو صناعات ثقافية عربية قومية، بحث مقدم لندوة التكامل الثقافي العربي في عصر العولمة، معهد الدراسات والبحوث العربية، القاهرة، 2001

خامسا: المواقع الالكترونية

– غرايبة ابراهيم، الصناعات الثقافية، https://bit.ly/3bdVdU7، 03/282020/ على الساعة 14:20
–بن الوليد يحي، الصناعة الثقافية من منظور الفيلسوف تيودور أدورنو، https://bit.ly/2YSKxaW، 04/202022/ على الساعة 16:00